الدور التاريخى للكرد

لا يزال الغموض يكتنف أصل الكرد وتاريخهم القديم، شأنه في ذلك شأن المراحل الأخرى من تاريخهم التي لم تدرس بعد دراسة علمية دقيقة، بعيدة عن الخرافة والأسطورة والعاطفة والأيديولوجيا والمصالح السياسية.

الاصول التاريخية
الإسهام الحضاري
الكرد والإسلام
الاصول التاريخية

تباينت آراء الباحثين والمؤرخين حول الانتماء الحقيقي للكرد وجنس أسلافهم التاريخيين، وهذا ما انعكس بدوره على العصر التاريخي الذي يستطيع الباحث أن يعتمده كبداية للتاريخ الكردي قبل الإسلام.

"الكرد هم أحفاد الميديين الذين أسسوا دولة وانتصروا على الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد"

ولكن استنادا إلى مصادر تاريخ الكرد قبل الإسلام من دينية (توراتية ومسيحية) ويونانية وإرمنية وفارسية وإلى الرأي الراجح بانتماء اللغات الميدية والكردية والفارسية إلى أرومة اللغات الهندوإيرانية، استنادا إلى هذه البينات فإن المستشرق الروسي مينورسكي طرح نظرية مفادها أن الكرد ما هم إلا أحفاد الميديين الذين هاجروا من المناطق التي تحيط ببحر قزوين غرباً وجنوباً نحو الغرب (كردستان) بعد سقوط الدولة الآشورية عام ٦١٢ ق.م. جاء ذلك في المؤتمر العشرين للاستشراق الدولي الذي عقد في بروكسل عام ١٩٣٨ م.

وكان الصراع سجالاً بين الميديين (أجداد الكرد الحاليين) والآشوريين في الفترة من ٨٣٦ ق.م إلى غاية ٦١٢ ق.م عندما تمكن الميديون بالتحالف مع الكلدانيين بقيادة زعيمهم نبوبلاصر من إلحاق الهزيمة بالآشوريين واحتلال عاصمتهم نينوى عام ٦١٢ ق.م، وبذلك تقاسمت الدولتان الميدية والكلدانية منطقة الشرق الأدنى مناصفةً بينهما.

وفي الوقت الحاضر فإن غالبية المؤرخين والباحثين الكرد يعتبرون الميديين أسلاف الكرد الحاليين وعلى هذا الأساس اعتبروا بداية ظهور الميديين ككيان سياسي عام ٧٠٠ق.م تقريبا بداية للتاريخ الكردي على غرار الأمم الأخرى.

وفي سنة ٥٥٠ ق. م تمكن زعيم قبائل البارسيين(الفرس) كورش الإخميني من الانقلاب على جده لأمه الملك الميدي (أستياكس) في العاصمة (همكتانا – همدان) فأسس أول دولة فارسية في التاريخ تحت اسم (الدولة الإخمينية).

وبخصوص الحضارة الميدية وإسهاماتها في خدمة البشرية فإن العديد من التنظيمات الإدارية والسياسية والعسكرية الميدية اقتبسها مهنم الإخمينيون، كالألقاب الرسمية وتنظيم إدارة الدولة والمصطلحات العسكرية كـ(قائد مائة جندي- أو آمر الفصيل- والمسؤول عن

العينة– وهيئة العقاب)، وقد نظم أحد الباحثين الأوروبيين قائمة بتلك المصطلحات الميدية التي كانت تستعملها الإدارة الإخمينية، واستعارها فيما بعد اليونانيون الإغريق والرومان.

كما أن إحدى قبائل الميديين وهي الزاكروتيين طغى اسمها على الجبال التي تفصل العراق عن إيران وهي سلسلة جبال زاكروس.

أما زرادشت الذي يعد نبياً أو فيلسوفاً إيرانياً على أقل تقدير فقد ولد في منطقة الشيز في مقاطعة ميديا وعاش في العصر الميدي في الحقبة ما بين ٦٦٠ 583–ق.م. وكتب وصاياه بالخط الميدي، ولغة كتابه المقدس (الآفيستا- الآوستا– الآبستاق) في نظر غالبية الباحثين الأوروبيين هي اللغة الميدية، فلاعجب إن كان للحضارة الميدية تأثير كبير وإسهام فعال في تكوين البنية الفكرية والروحية للشعوب الهندوإيرانية وجيرانهم الساميين.

ومن جانب آخر كان من نتائج التحالف الميدي الكلداني أن حدثت مصاهرة بين الجانبين، حيث تزوج نبوخذ نصر ابن الملك الكلداني نبوبلاصر أميتس ابنة الملك الميدي أستياكس، وعندما لم تستطع أن تساير البيئة الجديدة التي بدأت العيش فيها لأن مدينة بابل عاصمة الدولة الكلدانية أرض سهلية وهي ابنة الجبال، بنى لها زوجها الملك نبوخذ نصر برجا هائلاً على شكل جبل وبطريقة ميكانيكية رفع إليها الماء من نهر الفرات، وقد سمى الأقدمون هذا البرج بالجنائن المعلقة، وعدت إحدى عجائب الدنيا السبع.

الإسهام الحضاري

"أسهم الكرد في حضارة وادي الرافدين وكانوا جزءا من باقي الحضارات العراقية في تحديد انتشار الموجة الثانية من البشرية بعد استقرار سفينة نوح عليه السلام"

مما لاشك فيه أنه كان للكرد إسهام لابأس به في الحضارة الإنسانية لأنه على أرضهم ظهرت أولى الحضارات البشرية، فقد حدد سكان العراق القدماء من السومريين والأكديين والآشوريين بداية انتشار الموجة الثانية من البشرية بعد استقرار فلك أُوتونابشتم (نوح عليه السلام) في جبل من الجبال الكردية هو كشاد كوتيوم حسب النص الأكدي ونيسير أو كينيبا حسب النص الآشوري. وفي التوراة وتحديداً سفر التكوين (٨: ٣-٥) يشير ناسخو العهد القديم إلى أنه "بعد مائة وخمسين يوماً نفضت المياه واستقر الفلك في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل آراراط"، فى حين حدد القرآن الكريم موقعاً قريباً لهذا الحدث الجلل في الآية ٤٤ من سورة هود "... وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي."...

وعلى أية حال فقد حفظت لنا السجلات التاريخية التي تعود إلى الألف الثالثة ق.م أسماء عدد من الآلهة التي عبدها سكان شمال وادي الرافدين (سكان كردستان القدماء)، فضلا عن عدد من الملاحم والأساطير التي كان لها تأثير في تطوير الوعي الاجتماعي والبنية الذهنية لهذه الشعوب والشعوب المجاورة التي انتقلت إليها هذه المعبودات وكانت لها تأثيرات واضحة وجلية في خلق مشاعر مشتركة حددت بمرور الزمن روابطها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مطورة أوجها عديدة للحياة العامة، اندثر قسم كبير منها وظل أقلها مدوناً في وادي الرافدين ومصر وإيران والهند واليونان. ومن هذه الآلهة: نيني (Ninإينانا)، الإله موس(MUS) ، أُودو(UDU) ، إله الشمس سوريا (آسورا SURIYA)، الإله تيشوب(TESUP) ، كومار بي(KOMARBI) ، الإلهان شيميكا وكوشوخ (إلها الشمش والقمر عند الخوريين.(

وبجانب المعبودات الزاكروسية التي ذكرناها آنفاً، فقد شاركت آلهة أخرى في عقيدة سكان المناطق الشمالية والشرقية لوادي الرافدين (سوبارتو) ترجع أصولها إلى المعتقدات والأساطير الميثولوجية للأقوام الهندية – الآرية) التي تركت مواطنها في جنوب روسيا في بداية الألف الثانية ق.م والتجأت إلى كل من الهند وإيران والأناضول وبلاد سوبارتو (كردستان)، وكان أشهر هذه المعبودات:

آسورا الهندية أو سورياش الكاشية خالق الكون والإنسان، وهورفتات (هاروت في القرآن الكريم) وماروتاش (ماروت في القرآن الكريم)، وواورونا وإندرا وناساتيا المذكورة في الفيدا (الكتاب الهندوسي المقدس)، وميثرا الذي انتشر خارج المنطقة الكردية حتى وصل أوربا، فقد آمن به اليونانيون والرومان واعتبروه إله الملوك والمعاهدات الدولية وإله الجنود حيث كانت تنحر الثيران في عيد ميلاده.

وبعد انهيار الدولة الإخمينية الفارسية عام ٣٣٠ ق.م انتشرت عبادة ميثرا (إله الشمس المنير) في بقعة واسعة بين كردستان والأناضول وخاصة بين افراد الطبقات الأرستقراطية وأمراء الأقاليم، لذلك دخل اسمه في تركيبة عدد كبير من الألقاب الملكية مثل: ميثرادات الأول والثاني والثالث البرثي وميثرادات السادس ملك البنطس (منطقة البحر الأسود)، وميثرادات ملك الإرمن وغيرهم. ومنذ عام ١٣٦م صنعت في الإمبراطورية الرومانية مئات التماثيل والأصنام لهذا الإله وأصبحت الميثرائية عند الرومان دين إطاعة الملوك، وقد شجعها الأباطرة. أما في العصر الساساني فيقول المؤرخ الدانماركي آرثر كريستنسن "إن الشمس التي كان يعبدها مجوس العهد الساساني ليست خور وإنما هي مهر، ميثرا اليشتات القديم الذي جعل منه الميثريون الشمس التي لا تقهر."

وانعكست صيغة كنيته الحديثة (ميهر) في بعض الكلمات والأسماء الكردية مثل ميهربان (الرحيم) وميرزا (السيد والمبجل)، و(المار) عند السريان المسيحيين بمعنى الشيخ، كما دخل اسم الاحتفال بيوم مولده إلى العربية بصيغة (مهرجان). أما الكنيسة المسيحية فقد جاملت ميثرا مجاملة عظمى باحتضان عيده الأكبر الذي يقع في ٢٥ ديسمبر/كانون الأول، وهو يوم ميلاد (الشمس التي لا تقهر)، واتخذت منه عيد مولد السيد المسيح عليه السلام.

الكرد والإسلام

كان الكرد يعيشون كمجموعات قبلية ضمن الإمبراطورية الفارسية الساسانية في غياب أي كيان سياسي خاص بهم في هذه الفترة، وبالتالي كانوا جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية. في هذا الوقت توالت الانتصارات الإسلامية على القوات الفارسية في معارك القادسية وجلولاء ونهاوند (فتح الفتوح). وكان من نتائجها أن حدث احتكاك بين العرب المسلمين الفاتحين وبين الكرد.

"دخل غالبية الكرد في الإسلام طوعا وكان لهم إسهام بارز في الفتوحات التالية ولم تقم الإمارات الكردية بالتآمر على الدولة الإسلامية في أوقات ضعفها مثلما فعل الفرس أو البويهيون"

ومهما يكن من أمر فإن غالبية المناطق الكردية من مدن وقرى وقلاع وزموم في أقاليم الجبال الغربية ومناطق الجزيرة الفراتية وأرمينيا
وأذربيجان قد فتحت صلحاً، ماعدا مناطق قليلة فتحت عنوة كشهرزور (محافظة السليمانية) فقد لاقى المسلمون مقاومة شديدة من سكانها، فضلاً عن مناطق ماسبذان

والصيمرة الواقعة فى جنوب إقليم الجبال الغربى (لورستان) حيث جرت بين المسلمين والفرس المدعومين من قبل الكرد معارك طاحنة كانت نتيجتها انتصار المسلمين.

وبحلول عام ٢١هـ دخلت غالبية المناطق الكردية في الإسلام، وبدأت عملية أسلمة المجتمع الكردي تمشي على قدم وساق .

إن دخول الكرد في الإسلام ربما أشعرهم بكينونتهم كجماعة متميزة بلغتها وتراثها ضمن الجماعة الإسلامية. ومن جانب آخر فإن فقدان الكرد لدولتهم الميدية وتقلص دورهم الحضاري في ظل الدول الأجنبية التي توالى حكمها على كردستان مثل الإخمينيين واليونانيين والبرثيين (ملوك الطوائف) والساسانيين، جعل من الطبيعي أن يرحبوا بالإسلام باعتبار ذلك وسيلة انتقال إلى وضع أفضل مما كانوا فيه، فضلا أنهم تخلصوا من ظلم الدهاقنة الفرس وتعقيدات رجال الدين الزرادشت (المجوس) التي كانت تلقي عليهم تقاليد وطقوسا لا قبل لهم بها.

وفي حقيقة الأمر لم يمس الإسلام الكيان القومي للكرد داخل وطنهم، بل إنه ساعد على تعزيز ذلك الكيان في وجه الشعوب والأنظمة غير الإسلامية المتاخمة لكردستان، ولا سيما في طرفها الشمالي. يقول باحث محايد إن الخلفاء المسلمين لم يحاولوا التدخل في الكيان المستقل لزعماء الكرد. وذلك يدخل دون شك في الأسباب الأساسية التي دفعت الكرد إلى الترحيب بالدين الجديد والإخلاص له والتفاني من أجله. إن احتفاظ الكرد بخصائصهم القومية وبلغتهم في ظل الإسلام وحضارته لهو درس بليغ من التاريخ كان يجب أن يؤخذ في الاعتبار.

ومما يضفي أهمية خاصة على هذا الأمر أن أبناء الكرد رحبوا بالعربية بوصفها لغة القرآن وأداة الروح والتقرب من الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك فإن الكرد وعلماءهم لم يروا أي تعارض بين إيمانهم بالإسلام وإخلاصهم للغة قومهم. كما كان لعلماء الكرد دور متميز في الحضارة الإسلامية بوجود العديد من اللغويين والنحاة والمؤرخين والمفسرين والمحدثين. وهكذا فقد كان اعتزازهم بالعربية وبالإسلام كبيرا بوصفها لغة القرآن الكريم ولم تدر في خلدهم الكتابة بغيرها حتى وإن كان لغتهم، وهذا ما جعل التراث الكردي جزءا من التراث الإسلامي وليس منفصلا عنه.

وهكذا ظل الكرد يؤلفون باستمرار روح الإسلام، كما أنهم أصبحوا جنودا للخلافة الإسلامية في شتى عصورها ولم تؤثر فيهم الاحتكاكات العقائدية والحزبية والمذهبية التي طغت على العديد من القوميات التي تؤلف المجتمع الإسلامي آنذاك، بل أصبحوا سندا ومدافعا أمينا عن الثغور الإسلامية في وجه الروس والبيزنطينيين وحلفائهم من الإرمن والكرج (الجورجيين)، أما دورهم في مقاومة الصليبيين والباطنيين بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي فأشهر من أن يعرف.

وفي العصور العباسية كان لهم دور مشهود في الدفاع عن حياض الخلافة، وحتى عندما شكلوا إمارات خاصة بهم كغيرهم من الأمم أيام تدهور الخلافة العباسية في العصر البويهي ٣٣٤-٤٤٧ هـ فإنهم بقوا على إخلاصهم لرمز الإسلام آنذاك (الخلافة العباسية)، ولم يحاولوا القيام بحركات التمرد والانفصال أو احتلال بغداد مثل أمم أخرى كالفرس

والبويهيين، وكان في استطاعتهم فعل ذلك لو أرادوا، ولكنه في اعتقادي الإخلاص للإسلام وللخلافة العباسية لا غير.